النهار
86 سنة

معرض ريتا ماسويان لدى غاليري "آرت أون 56"
أرسمكِ أيتها الطفولة بذكريات الفرح ونضج المخيلة

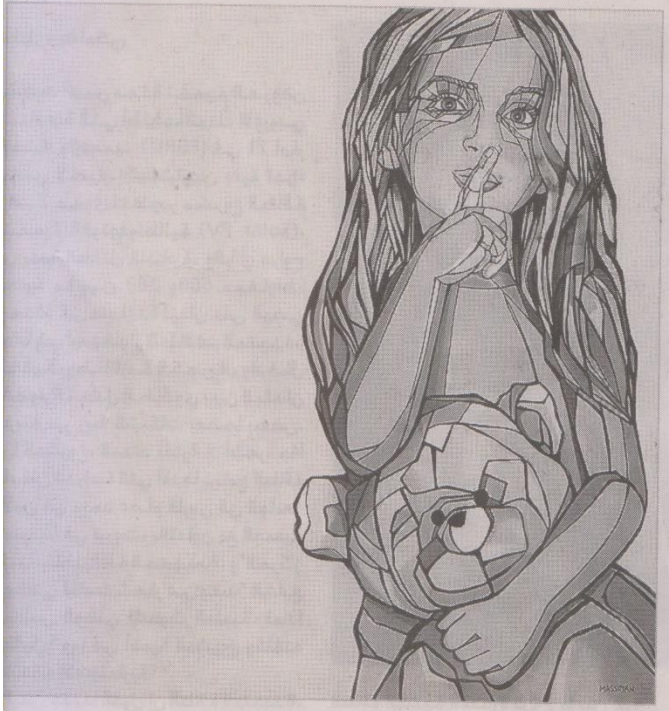

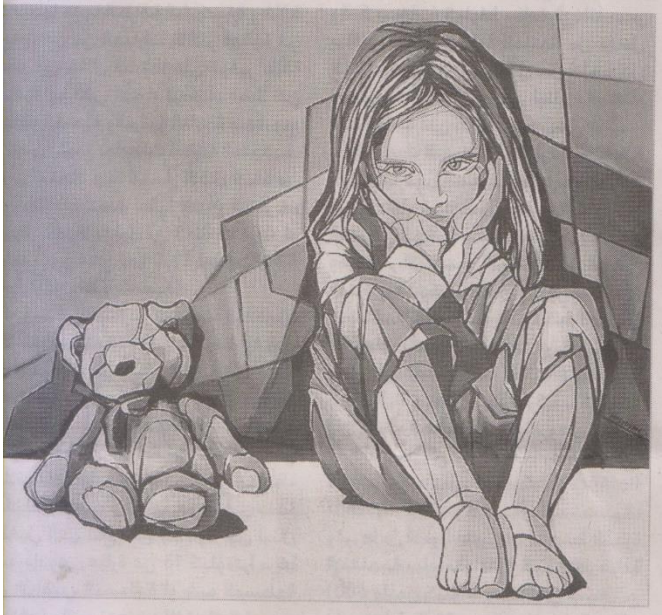

الناظر إلى أعمال ريتا ماسويان، المعلّقة على جدران غاليري "آرت أون 56"، سيلاحظ فوراً ذلك الدفق من الفرح والسعادة، المتمثّلين في 18 عملاً من الحجم الكبير نسبياً، تم تنفيذها بتقنيّة الأكريليك، بالإضافة إلى منحوتات من مادة الرزين، عُرضت جميعها تحت عنوان "ذكريات الطفولة".

محمد شرف

إذا كنّا ذكرنا الفرح، فلأن ما يتعلّق بمرحلة الطفولة لا بد من أن يصطبغ بذاك الشعور، القائم على جملة من الذكريات، الجميلة في أغلبها، التي طوى الزمن صفحاتها، وبقيت في الذاكرة. هذا، علماً أننا نتحدث عن طفولة طبيعية، لم تتدخّل فيها ظروف وحوادث أبعدتها عن مسارها العادي، إذ لا بد أن تحضرنا، ونحن في صدد صوغ هذه العبارات، أحوال الطفولة المتعثّرة والعسيرة في أمكنة كثيرة من العالم، وخصوصاً في البلدان المحيطة بنا، حيث باتت المرحلة المذكورة لا تشبه الطفولة، بل هي أقرب إلى حقبة حياتيّة دراميّة، وإلى عذاب لا يستحقه من يعانيه، منها إلى الحالة الطبيعية.

ريتا ماسويان تدرك هذا المنحى، ولا نقصد هنا الحضور المأسوي الخارج عن المنطق، بل يتعلّق الأمر بطفولتها الخاصة التي اخترقتها لحظات ليست سعيدة نسبياً، كما هي الحال لدينا جميعاً. لكنها شاءت أن تحتفظ بالجميل الذي سيزيّن لوحاتها، الماثلة أمامنا، وتلقي الباقي إلى هوّة النسيان، إن أمكن ذلك، ولو إن بعض مذاهب علم النفس الحديث يصر على دور الجيّد والأقل جودة في تكوين شخصيّة البالغ، الذي سيصبح، في الحالة الحاضرة، فنّاناً. وهي لم تكتف باستحضار تلك اللحظات الخاصة بها تحديداً، بل مالت أيضاً صوب محيطها، فتلك المرحلة البعيدة تتشابك في طيّاتها خصوصيات الفرد وهمومه الساذجة مع خصوصيّات أنداده وما يدور في رؤوسهم. فالألعاب البسيطة، والحكايات البريئة التي يصوغها الصغار، تصدر عن ابتكار جماعي في أحيان كثيرة، حيث يؤدي كل طفل دوره، على ما في هذا الدور من فانتازيا تختلف مفاعيلها بين هذا الطفل أو ذاك.

لا تعمد الفنّانة إلى التعقيد في ما يختص بالإنعكاس التشكيلي للفكرة التي أخذتها على عاتقها. الأشكال واضحة، والرسم يلعب دوراً مركزيّا فيها من دون تحوير قد يؤدّي إلى نفي الروح الصافيّة، البعيدة قدر الإمكان عن الشوائب، التي هي، في كل الأحوال الروح الطفوليّة البسيطة. الأعمال المعروضة، في تتابع الحوادث فيها، هي أشبه بشريط مصوّر، ولن نخطئ إن قلنا إنها تستلهم بعض مداخل القصص المصوّرة، من حيث الشكل العام، من دون أن تقلّد أسلوباً كنا رأيناه هنا أو هناك. أسلوب ماسويان يقوم على إعتماد مساحات لونيّة صافية للخلفية، بعضها ذو وقع نوعي قوي، وبعضها الآخر محايد، في حين يتألّف الرسم الطفولي من قطع وأشكال تلاحق هذا الرسم، بحيث تنبسط أو تتعرّج أو تنقطع، علماً أن الخطوط المستقيمة هي الغالبة. أما اللون الذي تتضمّنه هذه التقطيعات فهو صاف بدوره، وإن كان يتراوح بين الحار والبارد، بحسب ما تتطلّبه الناحية الشعوريّة.

على أن هذه الأعمال، وبالرغم من بساطتها الظاهرة، محمّلة معاني خفية. وإذا كان يتم تصوير الشخصيات على أنها أطفال، إلاّ أنها ليست شخصيات طفليّة في إدراكها للموقف الشعوري، المذكور آنفاً. هؤلاء الأطفال يمتلكون ما يكفي من النضج المتناسب مع المهمّات التي يقومون بها، أو يتشاركون فيها، المتعلّقة بأنشطة مرتبطة بفئتهم العمرية. بعضهم يبدو متوحّداً وحزيناً، وتشي التعابير الصادرة عنهم بشيء من الغربة، لكنهم، وكما تشير الفنانة، ناضجون في سلوكهم، كما لو أنهم كائنات أجبرت على النمو بسرعة، وبلغت مرحلة البلوغ بالقوّة، لكنها بقيت محاصرة في جسم طفل.